المشرق

التوحيد في بني اسرائيل

وجمع التفخيم في الكتابات السامية

للاديب يوسف اوفرد احد اعضاء الجمعيَّة الكتابيَّة الأثريَّة

في المقالات التي نشرناها سابقاً في المشرق عن اسفار العهد القديم وما ورد في الاكتشافات المستحدثة من الآثار المثبتة لصحتها لم نتعرَّض لغير الامور المقرَّرة المبنيَّة على حجج راهنة وبيِّنات لامعة فتحاشينا كل بحث استند الى الحدس والتخمين او كانت براهينهُ غير مقنعة

ومن جملة المطالب التي كان العلماء يتباحثون فيها الاسم الكريم الذي ورد في اوَّل سفر التكوين ثم في فصولهِ التالية وفي آيات متعدِّدة على صورة الجمع فيُدعى الربّ سبحانهُ وتعالى باسم « الوهيم » وبالعبرانية Elohim الذي تفسيرهُ الآلهة . فذهب بعض العلماء لاسيما الالمانيين ممَّن لا يعتقدون بالوحي الى انَّ استعمال هذه اللفظة في الاسفار المقدَّسة دليل واضح على توثُّن بني اسرائيل في اوَّل عهدهم وانهم سجدوا للطواغيت كبقية الامم المتسكعة في ظلمة الشرك . وزاد هؤلاء الكتبة على زعمهم هذا ان الوثنيَّة بقيت مدَّة قرون متوالية شائعةً في شعب اسرائيل بخلاف التوحيد الذي كان منحصراً في بعض الافراد منهم فقط

فهذا القول لو ثبت لنقض ما يدَّعيهِ المحافظون على كرامة الوحي والمدافعون على صدق الاسفار الالهيَّة وهي تثبت انَّ توحيدهُ تعالى لم ينقطع في الجنس البشريّ وانَّهُ عزَّ وجلَّ اختار لهُ بين الآباء صفيًّا وهو ابراهيم الخليل الذي جعلهُ ابًا لأُمَّة كبيرة

استودعها حقيقة التوحيد لتصونها سالمةً من كل شوائب الشرك بين ظلمات الوثنيَّة

على انَّ ذوي الرأي المستقيم لم يسكتوا عن هذه الدعاوي الباطلة فتفنَّدوها بأدلَّة شتَّى لا تخلو من القوَّة . وهاك الاكتشافات الحديثة قد أتت اليوم لتغني كلَّ ريب عن هذه المسئلة الحيويَّة فأحببنا ان نجمع هنا تلك البراهين ليتحقَّق القرَّاء عناية الله تبارك اسمهُ الذي يأتينا كلَّ يوم بشواهد جديدة على صدق وحيهِ

ولسنا نريد في ذكر هذه الحجج انَّ الوثنيَّة لم تؤثِّر في العبرانيين تأثيرًا سيئًا فان شعب الله كان معرَّضًا لخطر دائم بين الشعوب الوثنيَّة التي تُحدق بهِ فينجذب الى عاداتها الباطلة وترى الانبياء يبكتونهُ على قلَّة ثباتهِ في خدمة ربِّهِ وعلى ميلهِ الى الآلهة الغريبة بل ربَّما اصابتهُ لذلك آفات عديدة ليعود الى إلههِ وينبذ ارجاس الامم . ومع قرارنا بما تقدَّم لا نسلِّم بان الوثنيَّة استعبدت بني اسرائيل بحيث انستهم إلههم او انَّ عبادة هذا الإله كانت شبيهة بعبادة الاصنام وانَّ إلههم الحيَّ كان كاحد آلهة الامم او انَّ الذات الالهية كانت في اعينهم متعدِّدةً في جوهرها . فكل ذلك نأبى التسليم بهِ لأنَّهُ يخالف الحقَّ من كلِّ وجه

واوَّل برهان نقدِّمهُ ردًّا على اوهام الملحدين نأخذهُ من نفس الآيات التي ورد فيها اسم الجلالة مجموعًا . فانَّ من يتبيَّن النصوص المذكورة يجدها جامعةً بين الاسم الجمع والفعل المفرد على خلاف قاعدة اللغة العبرانية التي يتبع فيها الفعلُ فاعلَهُ في الافراد والجمع سواء تقدَّم الفعل على فاعلهِ او الفاعل على فعلهِ فيقولون « الرجال دخلوا » كما يقولون « دخلوا الرجال » بجمع الفعل على الحالتين . امَّا اذا كان الفاعل اسم الجلالة فترى الفعل على عكس الامر مفردًا فيقولون : خلق الالوهيم (ברא אלוהים) وقال الالوهيم (ראשר אלוהים) ودعا الالوهيم (קרא אלוהים) وقس على ذلك . فهذا ولا شكَّ برهان قاطع على انَّ موسى النبي لم يقصد بجمع لفظة الوهيم تعدُّد الآلهة وانَّما اراد بها مجرَّد التفخيم . وهذه حجَّة كافية لبيان المقصود واليها التجأ المفسرون لتزييف من قرَّع ديانة الاسرائيليين بالتوثن في اصلها ونسبها الى الشرك

فهيهات اذن ان يستطيع الزنادقة اثبات زعمهم بهذه النصوص . ولدينا براهين أخرى تؤيِّد قولنا وتبطل رأي اولئك الكتبة في صحَّة معنى هذه الجموع وذلك بان

تقابلها بجموع التفخيم التي وجدت في الكتابات السامية المكتشفة حديثاً في انحاء الشرق المجاورة لمملكة بني اسرائيل اعني مصر والشام وفينيقية

قد وصف المشرق (٣ : ٧٨٥) لقرائه الرسالات الاشورية التي وُجدت في تل العمارنة الراقية الى القرن الخامس عشر قبل المسيح كتبها امراء فينيقية الى ملوك مصر الفراعنة ليفيدوهم عن احوال بلادهم . فبين الالقاب التي يخاطب بها اولئك المراسلون سيّدهم فرعون لفظة شبيهة بما نحن في صددهِ وهي « ايلانيا » ومعناها « يا سادتي » او « يا آلهتي » وهي لفظة جمع للتفخيم ليس الّا مرادهم منها المفرد « يا سيدي » او « يا الهي »

وهو لعمري برهان واضح يزيل كلّ شكّ في معنى اللفظة التي اتّخذهـا موسى . ويوافقها ما ورد في سفر تثنية الاشتراع (٦ : ٤) من الاسماء الالهيّة حيث قال موسى لاسرائيل : اسمع يا اسرائيـل انّ الربّ الهنا ربٌّ واحد » وهذه الالفاظ في العبرانيّة حرفيّتها كما ترى : « لسمع يا اسرائيل انّ يهوهَ (اي الكائن . بالمفرد) آلهتُك (بالجمع) يهوهُ (بالمفرد) واحد » فدلّ به على انّ اسمي الجلالة المفرد والجمع بمعنى متساوٍ . ومثلهُ في سفر التكوين (٤٦ : ٣) قول الربّ ليعقوب : « انا الله اله ابيك » فانّهُ في العبرانيّة « انا ايل (اي الاله . بالمفرد) آلهةُ (بالجمع) ابيك (١ »

ويزيد الامر وضوحاً اذا ما تصفحنا الكتابات الفينيقيّة التي خرجت من دفائنها في هذه السنين الاخيرة منها كتابة تحفظ في جزيرة سردينية نشرها العلّامة برجـه (Ph. Berger) في نشرة جمعيّة الكتابات والفنون (Comptes Rendus de l'Acad. des Inscriptions et Belles—Lettres, 1901, p. 575) وهـذه الكتابة تحتوي احد عشر سطراً كانت على مدفن من مدافن تارُس (Tharros) من اعمال صور وفي صـدر الكتابة اسم ملقرت بعـل صور الذي يُدعى تفخيماً باسم الجمع :

לאדן למלם חקדש מלקרת בעל הצר ועזפת
للسيّد الآلهة القدّوس ملقرت بعل صور وعزفة

١) ويؤخذ من هذه الاية الاخيرة برهـان آخر لردّ زعم القائلين ان اسم « ايل » يدلّ ليس على الهٍ عام يشمل كلّ البلاد بل على اله مكانيّ لا سلطة لهُ خارجاً عن فلسطين لانّ الربّ يقول ليعقوب : لا تخف ان تهبط مصر فاني ساجعلك ثمّ امّةً عظيمةً فقولهُ . « ثمّ » يبين قدرتهُ في مصر كما في فلسطين

فقولهُ « لسيد الالهة » دليل واضح على انَّ لفظة « الآلهـة » جمع تفخيم للجلالة ليس جمعاً صحيحاً للدلالة على العدد. و« إلم » عندهم جمع « ال » او « إيل » وهي بمثابة « الوهيم » عند العبرانيين

ومثل هذه الكتابة اثر آخر وجد قريباً من اثينة ونُشر في مجموع الكتابات السامية (CIS, I, n° 119) وفيهِ تقدمة كبير كهنة « الآلهة » لمعبودهِ نرجل

והנבעל בן אשמנעזלח רבכהנם אלת נרגל

يتبعل بن اشمنعزلح كبير كهنة الآلهة نرجل

« ونرجل » هـذا الهٌ لشوريٌّ دعاهُ تعظيماً له باسم الجمع. وكذلك نشر السير برجه كتابة فونيقية سنة ١٨٩٩ مصدَّرة باسم الآلهة عشترت (לאלת לעשתרת) بتقديم اسم الجلالة مجموعاً على اسمهـا. وهو على صورة اسم الجمع المذكر مع تقديمهِ على اسم مؤنث. وقد ورد في التوراة في سفر الملوك الثالث (١١ : ٥ و٣٣) اسم عشترت المذكورة ملقبة باسم « الوهم » وهو جمع مذكر كما مرَّ

فكلُّ هذه النصوص والكتابات تبين جليًّا بانَّ اسم الجلالة مجموعاً لا يدلُّ على عدد بل على تعظيم ومن ثمَّ سقطت حجَّة القـائلين بأنَّ اسم الجلالة مجموعاً في الاسفار المقدَّسة يُستشفُّ من ورائهِ آثار الوثنيَّة

ويمكنُنا ان نأتي بشواهد اخرى لبيان هذا الامر ننقلهـا عمَّا اكتُشف في بابل من الكتابات الاشوريَّة. فمن ذلك اسطوانة منقوشة باسم نابونيد فيها كتابة اشتهرت لورود اسم الملك بلشصَّر فيها على صورتهِ الاشوريَّة (بل — شا — اوزور). وفي هذه الكتـابة تكرَّر ايضاً اسم الاله « سين » مع تقديم اسم الجلالة عليهِ مجموعاً كما يقدَّم هذا الاسم على آلهة متعدِّدة في الكتابة عينها

وفي كتابة لشوريَّة نشرها السنة الماضية الاستاذ سايس (Sayce) في اعمال الجمعيَّة الكتـابيَّة الاثريَّة (Proceedings of the Soc. of Biblical Archaeology, 1906, p. 199) تُعرف اليوم برسالة « كدر لاعومر » ذكر الاسم الكريم غير مرَّة على صورة الجماعة مع الدلالة على اسم الهٍ مفرد كقولهِ مثلاً فيهـا « ودخل الى بيت الديَّان وكشف الستر امام مروداك واذا بالاله ملتحفاً بالنور ». فلفظـة الاله هي بالاشوريَّة « ايلاني » ومعناها الحرفي « الآلهة » وبعد هذا بقليل قد كرَّر الكاتب العبارة نفسها فلم يُبقِ ريباً في صحَّة نيَّتهِ

ومن يتصفّح الكتاب الكريم يجد في كلّ صحيفة من صحائفه تأكيد وحدانيّة الله فلا يمكنهُ ان يشكّ في وحي هذه العقيدة للبشر منذ البدء فتوارثتها الامم كلها من ذلك المصدر الاوّل . فانّهُ ورد مثلًا في الآثار المصريّة « انّ الله واحد هو وانّ كلّ الاسماء الالهيّة ليست الّا ظواهر كماله » وجاء مثل هذا في الآثار الاشوريّة وغيرها لكنّ تلك الامم اهملت نفسها لعبادة الاصنام فتغلب عليها فساد الشرك حتى نسيت خالقها بخلاف الامم اليهوديّة التي بنعمةٍ خاصة من الله لم تفقد هذا الكنز بل حفظتهُ سالمًا الى مجيء المسيح . وكان الله اذا رأى في شعبه شططًا في هذا الصدد يرسل اليه الانبياء ويؤدبهُ بالضربات والبلايا الى ان ينيب الى خالقه تائبًا . فما كان لموسى وللانبياء ان يعلّموا التوثن لبني اسرائيل وهم يقرعونهم على ذلك . ومن ثمّ لا بُدّ من القول بانّ اسم الله في الجمع كما ورد في الاسفار المقدسة لا يدلّ مطلقًا على شرك

وان سألت عن سبب اتخاذ اولئك الكتبة اسم الجلالة على هذه الصورة وهم يعرفون بانّ ذلك يعرّض بالسامعين الى الفكر بآلهة متعدّدين . اجبنا اوّلًا ان اصحاب الاسفار المقدّسة لمّا رأوا جميع الشعوب المجاورين لهم يتخذون اسم الجلالة مفخّمًا للدلالة على كل صنم من اصنامهم ارادوا أن يبينوا انّ تفخيم هذا الاسم احقّ واولى بالاله الوحيد الذي يستحقّ من الكرامة ما لا تستحقّهُ الطواغيت

ولنا جواب ثانٍ لتعليل ذلك وهو انّ في استعمال اسم الجلالة المجموع دليلًا على سرّ الثالوث الاقدس اعني الاقانيم الثلاثة في الاله الواحد . فانّ الله اراد ان يمدّ بذلك شعبهُ الى معرفة الثالوث اذا ما أوحيت اليه هذه العقيدة على يد السيد المسيح . وفي سفر التكوين نجد هذه الاشارة الى الاقانيم الالهيّة كقول الرب هناك بعد خطيئة آدم (٣ : ٢٢) : « هوذا آدم قد صار كواحد منّا » وكقوله عند ابتناء برج بابل (١١ : ٧) : « هلم نهبط ونبلبل لغتهم » . فهذه الجموع كما فسّرها المعلّمون تلمّح الى الثالوث الاقدس لكنّ تلك الاشارات لم يتجلِ سرُّها تامًا الّا بواسطة ابن الله المتأنس الذي ازال في الامر كل شبهة واعلمنا بذلك السرّ العجيب الذي يفوق كل ادراك وامر تلاميذهُ ان يبشروا به العالم اجمع وعلى اسمه القدّوس يعمدوا المتنصرين (١

(١) راجع مقالة للعلّامة متري بروكتور في هذا الموضوع نشرها في مجلّة العاديات الاميركيّة (The American Antiquarian, 1905, pp. 33)